ورقة ورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) في نوع من الترسل لم يكن منه شيء في الأدب العربي على الطريقة التي كتبناه بها في المعاني التي أفردناه لها ، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه في مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) ، وهي رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب فرأينا ألا تنفرد بها ، وهي هذه : »

. . . كانت لها نفسٌ شاعرة ، من هذه النفوس العجيبة التي تأخذ الضدَّين بمعنًى واحدٍ أحياناً ؛ فيَسُرُّها مرةً أن تُحزنَها وتستدعي غضبها ، ويُحزنُها مرةً أن تسرَّها وتبلغَ رضاها ، كأنْ ليس في السرور ولا في الحزن معانٍ من الأشياء ولكنْ من نفسها ومشيئتها

وكان خيالُها مشبوباً ، يُلقي في كلِّ شيءٍ لمعانَ النور وانطفاءَه ؛ فالدنيا في خيالها كالسماء التي ألبسها الليلُ ، مُلِئت بأشيائها مبعثرةً مضيئةً خافتةً كالنجوم

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلُها أحياناً من بلاغة حسِّها وإرهافه كأن فيها أكثرَ من عقلها ؛ ويجعلها في بعض الأحيان من دقةِ هذا الحسِّ واهتياجه كأنها بغير عقل

وهي ترى أسمى الفكر في بعض أحوالها ألاّ يكونَ لها فكر ألبتة ؛ فتتركُ من أمورها أشياءَ للمصادفة ، كأنها واثقةٌ أن الحظَّ بعضُ عشاقها . على أن لها ثلاثةَ أنواع من الذكاء ، في عقلها وروحها وجسمها : فالذكاءُ في عقلها فهم ، وفي روحها فتنة ، وفي جسمها . . . خلاعة

وكنتُ أراها مَرِحةً مستطارة مما تطربُ وتتفاءل ، حتى لأحسبُها تودُّ أن يخرجَ الكونُ من قوانينه ويطيش . . . ؛ ثم أراها بعدُ متضوِّرةً مهمومة تحزَنُ وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكونَ هماً ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة — جميلةً ظريفة ، قد تمّت لها الصورةُ التي تخلق الحب ، والأسرارُ التي تبعث الفتنة ، والسحرُ الذي تميّز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميّز هي بوجهها الفاتن

* * *

وكان حبي إياها حريقاً من الحب . فمثِّلْ لعينيك جسماً تناولَ جلدَه مَسٌّ من لهب ، فتسلَّع هذا الجلدُ هنا وهناك من سلْخ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لهبٌ يابسٌ أحمرُ كأنه عروق من الجمر انتشرت في هذا الجسم . إنك إن تمثّلتَ هذا الوصفَ ثم نقلْتَه من الجلد إلى الدم — كان هو حريقَ ذلك الحبِّ في دمي !

والحبُّ — إن كان حباً — لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوّةِ فعل الحقيقة التي في المعشوق ؛ ليس حالٌ منه في عذابه ، إلا وهي دليل على شيء منها في جبروتها

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونُ شخصيةِ المحب بشخصية محبوبه ، فيسقط العالمُ وأحكامُه ومذاهبُه مما بين الشخصيتين ، وينتفي الواقع الذي يجري الناسُ عليه ، وتعودُ الحقائق لا تأتي من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمرَّ على المحبوب لتجيء منه ، ويُصبح هذا الكونُ المظلم كأنه إطارٌ في عين مجنونٍ لا يحمل شيئاً إلا الصورة التي جُنَّ بها !

وتالله لكأنَّ قانونَ الطبيعة يقضي ألاّ تحب المرأةُ رجلاً يسمى رجلاً ، وألا تكون جديرةً بحبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ في الحرب . . . تلك الأهوال يمثّلها الحيوانُ المتوحِّشُ عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثم ترقُّ في الانسانِ المتحضر فيمثِّلها عملاً قلبياً بالحبّ

* * *

أحببتُها جُهْدَ الهوى حتى لا مَزيدَ فيه ولا مطمعَ في مزيد ، ولكن أسرارَ فتنتها استمرَّت تتمدَّدُ فتدفعني أن يكون حبي أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكنُ في الحبِّ أشدُّ من هذا ؟

ولقد كنتُ في استغاثتي بها من الحب كالذي رأى نفسَه في طريق السَّيل ففرَّ إلى ربوةٍ عالية في رأسها عقلٌ لهذا السَّيل الأحمق ، أو كالذي فاجأه البركانُ بجنونه وغلظته فهرب في رقة الماء وحلمه ؛ ولا سيلَ ولا بركانَ إلا حُرقتي بالهوى وارتماضي من الحبّ

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولكن هى الطبيعة ، هى الطبيعةُ فى العاشق

هى الطبيعةُ ، بجبروتها ، وعسفها ، وتعنتها . إذا استراح الناسُ جميعاً قالت للعاشق : إلا أنت . . . !

إذا عقلَ الناسُ جميعاً قالت فى العاشق : إلا هذا . . . !

إذا رأت جراحُ الحياةِ كلَّها قالت: إلا جرحَ الحبِّ . . . !

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدمعةِ والدمعة ، قالت : إلاَّ همَّ العشق . . . . !

إذا تغيرَّ الناسُ فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : إلاَّ هو . . . . !

إذا انكشف سرُّ كلِّ شىء ، قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المحجَّب بأسرار القلب . . . . !

* * *

ولما رأيتها أوّل مرةٍ وكَسنى الحبُّ لمسةَ ساحر ، جلستُ إليها أتأمّلها وأحتسى من جمالها ذلك الضياءَ المُسكِرَ الذى تمرَبدُ له الروحُ عربدةً كلها وقارٌ ظاهر ... فرأيتُنى يومئذٍ فى حالة كنَشْيةِ الوحى ، فوقها الآدميَّةُ ساكنة ، وتحتها تيَّارُ الملائكةِ يصُبُّ ويجرى

وكنتُ أُلْقَى خواطرَ كثيرة ، جعلَتْ كلُّ شىءٍ منها ومما حولها يتكلم فى نفسى ، كأن الحياة قد فاضتْ وازدحمت فى ذلك الموضع الذى تجلس فيه ، فما شىءٌ يمرُّ به إلاَّ مسَّتْه فجعلته حيًّا يرتعش ، حتى الكلمات

وشعَرتُ أوّلَ ما شعرتُ أن الهواء الذى تتنفَّسُ فيه يرقُّ رقّةَ نسيمِ السَّحَر ، كأنما انخدع بها فحسِبَ وجهَها نورَ الفجر !

وأحسستُ فى المكان قوّةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب ، جعلتْنى مُبعثَراً حولَ هذه الفتَّانة ، كأنها محدودةٌ بى من كلِّ جهة

وخُيِّل إلىَّ أن النواميس الطبيعية قد اختلّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص ؛ فأنا لذلك أَعْظُمُ أمامَها مرةً ، وأصغُر مرة

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورةٌ من الوجود النسائىّ الشاذ ، وقع فيها تنقيحٌ إلهى لتُظهِر للدنيا كيف كان جمالُ حوَّاء فى الجنة

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشعِرُنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ، وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمَرَح ، لأن الله وَضَعه فى هذا السرورِ الحىّ المخلوقِ امرأة

والتمست فى محاسنها عيباً ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :

« إذا عِبْتُها شبهتها البدرَ طالعاً . . . ! »

* * *

ورأيتها تضحك الضَّحِك المُستحى ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون . . . .

وتبْسِم ابتسامات تقول كلٌّ منها للجالسين : انظروها ! انظروها . . . !

ويَغمُرُها ضحِكُ العين والوجهِ والفمِ ، وضحكُ الجسمِ أيضاً باهتزازه وتَرَجرُجه فى حركاتٍ كأنما يَبسم بعضها ويُقهقِه بعضها . . .

وتُلقِى نظراتٍ جمعَ الله معها ذلك الاغضاءَ وذلك الحياء ، ليضعَ شيئاً من الوقاية فى هذه القوّةِ النّسويّة ، قوّةِ تدمير القلب

وهى على ذلك متسامية فى جمالها حتى لايتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم ؛ وكأنه جسمٌ ملائكىٌّ ليس له إلا الجلالُ طوعاً أو كرهاً

جسم كالمعبد ، لا يعرف مَن جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشع

وتُطالعُك من حيث تأملتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمة على هذا الجسم ، تطلبُ منك الفهمَ وهى لا تُفهَم أبداً ؛ أىْ تريد الفهمَ الذى لاينتهى ؛ أىْ تطلب الحبَّ الذى لاينقطع

وهى أبداً فى زينة حسنها كأنها عروسٌ فى معرِض جلْوتها ؛ غير أن للعروس ساعةً ، ولها هى كلُّ ساعة

* * *

أما طَرفها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائف ، أنا خائف !

ووجهها تتغالبُ عليه الرزانة والخِفّة ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها

وهى مِثلُ الشعر ، تُطرِبُ القلبَ بالألم الذى يوجَدُ فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم

وهى مِثلُ الخمر ، تحسبُ الشيطاناتِ مُتَرقرقاً فيها بكل إغرائه !